مدلولات الوجود الحقيقي بين هيرقليطس وبارمنيدس

د. مفتاح سليمان أبوشحمة[1]

كلية الآداب – جامعة مصراتة

https://doi.org/10.36602/faj.2018.n12.03

ملخص البحث

إن البدايات الأولى لمشكلة الوجود الحقيقي بين الواحد والمتعدد، الثبات والصيرورة، السكون والحركة، تجسدت بوضوح لدى هيرقليطس وبارمنيدس، حيث كان الوجود الحقيقي الهيرقليطي متمثلا في كونه موجودا ولا موجود؛ وذلك لخضوعه لحتمية التغير، والصيرورة، اللذين هما ذاتية الوجود واللاوجود الحقيقيين على السواء، وهذا كله ناتج بفعل التفاعل المستمر بين الأضداد، وما يحدث عنها من تغليب أحد الأطراف على الطرف الآخر، مع ضرورة ظهور الانسجام نتيجة الوحدة، والائتلاف الحاصل في هذا الصراع بحكم قانون التغير (اللوجوس Loqos)، الذي يسير عليه الوجود في تغيره، وصيرورته من ضد إلى ضد، معلنًا بذلك عن ماهية طبيعته النارية، بكون أن النار عند هيرقليطس هي الأقدر على أحداث التغير والصيرورة.

أما حقيقة الوجود لدى بارمنيدس، فإنها تظهر في كونه خالٍ كلية من التغير والصيرورة، على أساس أنه لا يصبح ولا يفسد على الإطلاق، فهو كامل، وثابت، وواحد غير قابل للقسمة والفناء والنقصان، مجرد من الماضي والحاضر والمستقبل؛ إذ إنه حاضر خالد بلا زمان، منزه عن الحركة، متماثل مع نفسه وطبيعته ظاهر في وجوده الذي يدرك بالعقل فقط.

الكلمات المفتاحية: *الوجود، هيرقليطس، بارمنيدس، التغير والصيرور، الثبات.*

[1] mo.adushma@art.misuratau.edu.ly

ISSN 2664-1682

THE REAL EXISTENCE BETWEEN HERACLITUS AND PARMENIDES

Abestract

This research focuses on clarifying the implications of the real existence both on the one hand and on the other, between the changing and becoming of Heraclitus that based on the basis of the variable sense and the permanence of the Parmenides constancy, that based on reasonable reason. On accordance of sterking philosophical contradiction, as for Heraclitus is represented in elucidation of chaqing becoming concepts, that occurred after the incongruity of opposites, thus the real existence of Heraclitus is that through which the exists becomes iridescent, therefore become by the rule of the canon of the continuous interaction between the opposites, And the deep correlation and harmony that exists under general system, which includes justice and equality, which form the union of opposites and their alliance, according to the General canon of "Logos" lt is through fire which added to it which represents the maximum degree of change and the process, but at Parmenides, this conflict appears loud with the principle of true existence, as true subject to the mind in the unity of the thinking subject and the unity of truth, and thus it is hard to separate the abstract nature of existence and the variable nan-existence one, which subjects to variable and becoming, and coming to us through the senses, through which the ordinary man interprets his own materialistic universe.

***keywords**: Real existence, Heraclitus Parmenides,Chanae & process Stabilitv*

1. المقدمة

تُعدَ مشكلة الوجود الحقيقي بين الواحد والمتعدد، الثبات والصيرورة، السكون والحركة، من أولى المشكلات الفكرية الكبرى المطروحة في المناقشات الفلسفية إبان الاتجاه الواحدي، وتبنيه لمشكلة المادة الأولى لخلق العالم، والتي كان الفلاسفة الملطيون قد أثاروها، حيث إن هيرقليطس والإيليون هم الذين أطاروها، وذلك بُغية الإجابة عن ذاك السؤال

ISSN 2664-1682

الفلسفي المهم، والمتعلق بكيفية معرفة وإدراك الوجود الحقيقي بين الواحد والمتعدد، الثبات والصيرورة، السكون والحركة.

صحيح أننا هنا أمام نقلة نوعية تشهدها الفلسفة إلىونانية نتج عنها تشعب الفكر الفلسفي إلى اتجاهين رئيسيين: يتمثل الأول، الذي يتبنه هيرقليطس، في وجود التغير والصيرورة، بكونها أساس الوجود الحقيقي، والاتجاه الثاني فيتمثل في قول بارمنيدس بالثبات، باعتباره جوهر الوجود الحقيقي، وبهذا الشكل تتبلور مدلولات الوجود الحقيقي بين هيرقليطس وبارميندس، والتي سوف نحاول– إن شاء الله– في هذا البحث أن نتتبعها بالدراسة والتحليل على وَفق تصورات كل منهما، وذلك من خلال المباحث القادمة.

1. 1 أهمية البحث

1– دراسة بدايات الفلسفة حول مشكلة مدلولات الوجود الحقيقي بين الواحد والمتغير، الثبات والصيرورة، السكون والحركة، تلك التي أثرت فيما بعد في جُل مباحث الفلسفة، وما نتج عنها من مذاهب فلسفية كبرى، تجلت بوضوح عند فلاسفة المذهب المثإلى، وفلاسفة المذهب التجريبي.

2– دراسة أهمية دور التغير، والصيرورة، ومبدأ الثبات في معرفة الترابط والاتساق بينهما؛ للوقوف على مدلولات الوجود الحقيقي.

1. 2 أهداف البحث

1– محاولة بيان سبق الفلسفة إلىونانية عامة، وفلسفة هيرقليطس وبارمنيدس خاصة، في بحث ودراسة الجدلية الفلسفية، حول مشكلة مدلولات الوجود الحقيقي بين المحسوس المتغير والمعقول الثابت.

ISSN 2664-1682

2- إبراز مدلولات الوجود الحقيقي عند هيرقليطس، على وَفْق قانون التغير، والصيرورة بحكم صراع الأضداد.

3- إبراز مدلولات الوجود الحقيقي عند بارمنيدس على وَفْق مبدأ الثبات المدرك عن طريق (العقل) الذي هو وحدة موضوع التفكير ووحدة الحقيقة.

1. 3 مشكلة البحث

تظهر مشكلة البحث في تعيين التساؤلات الآتية:

1- ما مدى إمكانية التغير والصيرورة في معرفة صحة مدلولات الوجود الحقيقي عند هيرقليطس؟

2- ما مدى إمكانية الثبات في معرفة صحة مدلولاتها الوجود الحقيقي عند بارمنيدس؟

فرضية البحث:

1- تأتي معرفة مدلولات الوجود الحقيقي عند هيرقليطس من خلال إدراك مبدأ الثبات البارمنيدي.

2- تأتي معرفة مدلولات الوجود الحقيقي عند بارمنيدس من خلال إدراك التغير والصيرورة الهيرقلطية.

2. المنهج والإجراءات

يُدرس هذا البحث وفق منهجية تقوم على المنهج السردي التاريخي في العرض، والنهج التحليلي في المعالجة، والنهج النقدي المقارن في المفاضلة والإثبات والنفي، وقسم هذا البحث إلى مقدمة عامة، ومبحثين رئيسيين.

ISSN 2664-1682

3. المبحث الأول :الوجود الحقيقي عند هيرقليطس[1]

3. 1 مدلولات الوجود الحقيقي في مفهوم التغير والصيرورة الناتج عن صراع الأضداد

تتمثل مدلولات الوجود الحقيقي عند هيرقليطس في مفهوم التغير والصيرورة، فكل الأشياء عنده في تغير متصل، على اعتبار أن كل الموجودات لا تفتأ تتحول وتصير، ولا يوجد شيء يظل ثابتا، وباقياً أمدا طويلا من الزمن، بل سيأتي فناؤه وزواله يوما، فلا ثبات مطلق، ولا حتى ثبات الأشياء النسبي موجود، فالكل يتغير ويصير من لحظة إلى أخرى، ومن ثم يكمن في الآن الواحد، بكونه موجودا ولا موجود، أي أنه موجود وغير موجود في الوقت نفسه، فهو يخضع لضرورة الصيرورة التي هي ذاتية الوجود واللاوجود، اللذين هما حقيقيان على السواء، فهما صادقان ومتماثلان بحكم التغير والصيرورة. (ستيس، 1984، ص71).

"الأشياء الباردة تصير حارة، والحارة تصير باردة، ويجف الرطب، ويصبح الجاف رطبا". (الأهواني، 2009، ص106).

"إنها تفترق وتجتمع، وتزيد وتنقص". (الأهواني، 2009، ص106).

[1] نشأ هيرقليطس Herakleitos (500ق. م) ابن بليسون Blyson أندروكليس في مدينة إفيسوس Ephesos إحدى المدن الأيونية الاثنتى عشرة، وترأس بعض الوقت منصب الكاهن الأعظم لمعبد الإلهة (أرطميس) ربة الخصب، والتناسل، والأمومة في مدينته (إفيسوس)، ثم تنازل عنه لأخيه طواعية دون إكراه، واعتزل في الجبل زاهدا يأكل الحشائش، بعد أن ترك السياسة وحياة الملوك، وقيل: إنه كتب كتابا واحدًا في ثلاثة أجزاء: فلسفي، وسياسي، وديني، اسمه (في الكل) Peri tu Pantos، وقد اشتهر أسلوب الكتاب بالغموض مما أطلق على هيرقليطس بسبب الفيلسوف (الغامض) أو (المظلم)، ولم تبقَ من هذا الكتاب إلا بضع فقرات معدودة فقط. (الأهواني، 2009، ص 101، 102، 103).

ISSN 2664-1682

"ما يوجد فينا شيء واحد: حياة، وموت، يقظة، ونوم، صغر، وكبر، فالأولى [من الأضداد] تتحول، وتصبح الأخيرة، والأخيرة تصبح الأولى". (الأهواني، 2009، ص109).

إذن، فبحكم مبدأ التغير والصيرورة عند هيرقليطس، فإن طبيعة الأشياء تخضع لقانون التفاعل المستمر بين الأضداد الملازم للعالم والمتأصل فيه، لدرجة أن الإله نفسه أضحى النهار والليل، الشتاء والصيف، الحرب والسلم، الشبع والجوع.

"الله هو النهار والليل، الشتاء والصيف، الحرب والسلم، الشبع والجوع، ولكنه يتخذ أشكالا مختلفة". (الأهواني، 2009، ص106).

فكل الأشياء لها دورة تظهر من خلالها وتنقضي، بداية من الحشرات التي تعيش ساعة واحدة فقط، ثم تموت، وأيضا الجبال الخالدة أمد طويل من الزمن، فالتغير والصيرورة في النهاية لا بد من أن يطرأ على الكل عاجلًا أم آجلًا، فلا ثبات مطلق، ولا حتى ثبات الأشياء النسبي موجود، فجميع الأشياء تتغير وتصير من لحظة إلى أخرى، ومن ثم تكمن في الآن الواحد، بكونها موجودة ولا موجودة، أي: أنها موجودة وغير موجودة في الوقت نفسه، فهي تخضع لضرورة الصيرورة التي هي ذاتية الوجود واللاوجود، اللذين هما حقيقيان على السواء، فهما صادقان ومتماثلان بحكم التغير والصيرورة. (ستيس، 1984، ص71).

نعم، البارد يصبح حارا، والحار يصبح باردا، ويجف الرطب، ويصبح الجاف رطبًا، وما يوجد فينا فهو شيء واحد: حياة وموت، يقظة ونوم، صغر وكبر، وكل من هذه الأضداد تتحول إلى الأخرى، فلا مجال هنا للثبات في هذا الوجود، بل التغير والصيرورة هما القانون السائد، فنحن بحسب رأي هيرقليطس:"لا يمكننا أن ننزل مرتين في النهر نفسه؛ لأن مياها جديدة تغمرنا باستمرار". (الأهواني، 2009، ص106).

ISSN 2664-1682

على هذا المنوال ارتسمت مدلولات الوجود الحقيقي وفق مفهوم التغير والصيرورة، بكونهما الجوهر والأساس لاستمرارية الوجود، فبهما لا يبقى شيء على طبيعته على الإطلاق، وإنما يتغير إلى ضده.''تحب الطبيعة أن تختفي". (الأهواني، 2009، ص104).

إن ذلك كله يحدث لدى هيرقليطس كضرورة حتمية لقانون صراع الأضداد، الذي يتجلى بوضوح في آلية تبادل الأدوار، وذلك عندما يحل بعضها محل بعض، فالأشياء تتغير، وتصير من ضد إلى ضد، بكون أن كل ضد يشمل الضد الآخر ويحتويه، فلا وجود لضد بدون الضد الآخر، أي: بمعنى يجب أن يكون متمثلا في الآخر؛ لكي تحدث عملية التغير والصيرورة المفروضة. (freeman، 1978, p. 178)

"يجهل الناس كيف يكون الشيء مختلفا، ومتفقا مع نفسه؟ فالائتلاف harmonia يقوم على الشد والجذب بين الأضداد، كالحال في القوس والقيثارة". (الأهواني، 2009، ص107).

إن كل ما يتمثل هنا– بحسب تصور هيرقليطس– يهدف إلى خلق تلازم، وانسجام عميق في فلك النظام العام، فنحن– مثلا– إن لم يحل بنا المرض أبدا لن نعرف قيمة الصحة، وإن لم نقاسِ الجوع يوما، لن نسعد بتناول كفايتنا من الطعام، وإن لم تنشب الحروب لن نقدر قيمة السلام.

فعالم الموجودات لا يمكن أن يوجد بغير هذا الصراع الناتج عن التغير والصيرورة ، وذلك من حيث إن ديناميكية استمرار وجود هذا العالم تكون بالضرورة مشروطة في الانتقال من ضد إلى ضد، وهذا الانتقال هو السبب في تدفق الوجود الذي هو الحياة ، والتي لا وجود لها بدون صراع هذه الأضداد، وذلك من حيث احتواؤها على معطيات إثبات استمرار وجود دواتها، فلا وجود لضد دون وجود الضد الآخر، الذي يشمله ويحتويه، ومن ثم

ISSN 2664-1682

يكسبه ديمومة الاستمرارية في الصراع، التي بها يتولد وجوده، وهذا ما أورده هيرقليطس في عديد من نصوصه التي منها قوله بأن:

"الضد هو الخير لنا". (الأهواني، 2009، ص107).

"الائتلاف الخفي أفضل من الظاهر". (الأهواني، 2009، ص107).

"الصحة والمرض واحد". (الأهواني، 2009، ص107).

"الزوجان كل ولا كل، يرسمان معا، أحدهما تحت الآخر، مؤتلفان ومتنافران، الواحد يتكون من جميع الأشياء، وتخرج جميع الأشياء من الواحد". (الأهواني، 2009، ص108).

"الخالدون فانون، والفانون خالدون، وأحدهما يعيش بموت الآخر، ويموت بحياة الآخر". (الأهواني 2009، ص108).

إذن، لا مناص من الصراع والكفاح بين الأضداد عند هيرقليطس؛ لكي يستمر تدفق الوجود الحقيقي وتتحقق ماهيته؟! ولكن كيف هي طبيعة هذا الصراع؟ هل هو قائم على الظلم والجور والبهتان؟ أو أن هناك عدلا وتوازنا وانسجاما بين الأضداد في صراعها الوجودي هذا؟

هنا يجهر هيرقليطس بالعدل والمساواة في صراعه هذا، وذلك عند قوله بتغليب أحد طرفي الصراع على الآخر، وهكذا دواليك، وهذا التغليب ليس إقصاء للآخر، والحد من استمرار تدفق وجوده بغلبته من قبل الآخر، وإنما بتحقيق وجوده في غلبته من قبل الآخر والعكس صحيح (كرم، 1999، ص34).

ISSN 2664-1682

"يجب أن نعرف أن الحرب عامة لكل شيء، وأن التنازع عدل، وأن جميع الأشياء تكون وتفسد بالتنازع". (الأهواني، 2009، ص108).

"جميع الأشياء بالنسبة إلى الإله جميلة وحق وعدل، ولكن الناس يعدون بعض الأشياء ظلما، وبعضها الآخر عدلا". (الأهواني، 2009، ص108).

3.2 حقيقة الوحدة والائتلاف في صراع الأضداد وتمثل النار

إن هيرقليطس لم ينكر الوحدة والائتلاف في العالم، وإنما هي عنده موجودة، وإن كانت في صورة وحدة وائتلاف صيغت من اتحاد الأضداد، فقوام العالم الحقيقي عنده يكمن في الوحدة والائتلاف المتوازن بين الأضداد، التي من صراعها– وفقا لمقادير محسوبة– يتعايش انسجام خفي، أو تناغم جوهر العالم في وحدة وائتلاف لم تكن أبدا خارج الكثرة أو المتضادات، بل هي متمثلة صراحة في الأضداد نفسها، فهي كثير وواحدة، حيث إن التغير والصيرورة يعني تحول الموجود إلى ضده، وذلك لا يعني فناء أحد الطرفين—كما عرفنا سابقا— بل يكمن وراء هذا التضاد وحدة وائتلاف من الأضداد، ثم يعقب هذه الوحدة والائتلاف تضاد وتستمر هذه الدورة إلى مالا نهاية؛ لأن التغير والصيرورة هي حقيقة الوجود. (lewis,1973,p.322).

على هذا الشكل تظهر حقيقة الوحدة والائتلاف عند هيرقليطس التي نستنتج من خلالها التوتر الذي هو سر ديمومة التغير والصيرورة، أي: أن الوحدة والائتلاف الذي يعقب التضاد غير ثابت، فلا بد من أن يفضي إلى تضاد يعقبه وحدة وائتلاف وهكذا الحال، فمسيرة الموجودات الهيرقليطية المتمثلة لنا في التغير والصيرورة الدائم، والذي يرمز إليه هيرقليطس بتدفق وجريان النهر المنساب على الدوام، ولا تشهد على التغير والصيرورة الدائم

ISSN 2664-1682

فحسب، بل على سنة التضاد والوحدة والائتلاف المتعاقبين اللذين لا يختلفان إلا في الظاهر فقط، فالوحدة الوجودية عند هيرقليطس، والتزامه القول بالتغير والصيرورة الدائمة للأشياء، تجعل من فلسفته تقوم على تغير وصيرورة في الكيف، مع أصل ثابت، هو قانون التغير بالذات، ومن ثم تتضح حقيقة الوحدة والائتلاف في صراع الأضداد، ذاك الذي عبر عنه هيرقليطس بالقانون العام أو (اللوجوس Logos) الذي يسيطر على كل شيء، والذي لا سبيل إلى إدراكه ومعرفته إلا عن طريق العقل الذي هو مشترك بين جميع الناس، ومن ثم يكون قادرا– أي اللوجوس– على تفسير جُل الموجودات التي يجب بالضرورة أن تخضع وتنصاع له. (بدوي، 1958، ص141).

"ومع هذا فإن كلمة Log0s أزلية، إلا أن الناس يعجزون عن فهمها عند سماعها، كأنهم يسمعونها لأول مرة؛ وذلك أن الأشياء– ولو أنها تجري مطابقة لهذه الكلمة– إلا أن الناس يبدون كأنهم لا تجري لهم الأشياء، عندما يصنفون الأسماء والأفعال". (الأهواني، 2009، ص103).

"إذا تكلم الناس بالعقل، فيجب أن يتمسكوا بما هو مشترك للجميع، كما تتمسك المدينة بالقانون Nomos، بل يجب أن يكون تمسكهم أشد؛ لأن جميع قوانين البشر مستمدة من قانون واحد، إلهي، يحكم كما يشاء، ويشمل كل شيء، بل وأكثر". (الأهواني، 2009، ص110).

إذن، باللوجوس المدرك بالعقل نستطيع بحسب زعم هيرقليطس أن نعي حقيقة الوحدة والائتلاف في صراع الأضداد، الذي يسير عليه الوجود في تغيره، وصيرورته من ضد إلى ضد، مدركين بذلك أشد وأقصى أنواع التغير والصيرورة، المتبلور في النار، باعتبارها المادة الأولى في الطبيعة، بكونها الأقدر على التغير والصيرورة، فهي أسرع حركة، وأدل على

ISSN 2664-1682

الوجود الحقيقي، ومن ثم فلا تظل كما هي من لحظة إلى أخرى، بل تتشكل وتتنوع بحسب مادة الأشياء المكونة لها، فالكل يتركب من النار ويعود ثانية إليها. (بدوي، 1958، ص140).

"هذا العالم Kosmos– وهو واحد للجميع– لم يخلقه إله أو بشر، ولكنه كان منذ الأبد، وهو كائن، وسوف يوجد إلى الأزل، إنه النار، التي تشتعل بحساب metra [بمقياس– بنسبة] وتخبو بحساب". (الأهواني، 2009، ص105).

"هناك تبادل بين النار وبين جميع الأشياء، كالتبادل بين السلع والذهب، أو الذهب والسلع''. (الأهواني، 2009، ص 105).

إذن، فطبيعة الوجود عند هيرقليطس طبيعة نارية، حيث إن هذه النار هي الأقدر والأكمل على إحداث التغير والصيرورة على نحو حسي، وذلك على أساس أنها وحدها التي تمتلك دوام التغير والصيرورة.

"عندما تعلو النار على جميع الأشياء، فإنها سوف تحكم عليها وتدينها". (الأهواني، 2009، ص105).

ولكننا هنا لا يجب أن نفهم بأن النار التي يقصدها هيرقليطس هي نار مادية صرفة ندركها بالحواس؟! بل في الحقيقة أنها نار إلهية، لطيفة للغاية، أثيرية، نسمة حارة، حية، عاقلة، أزلية، يعتريها وهن، فتصير نارا مادية محسوسة. (قرني، 1993، ص86، 87)، فهي تتحول تارة إلى ماء، وتارة أخرى إلى أرض، فاللهب يلتهم كل ما يمسه، فهناك دورة دائمة التغير والصيرورة، تحدث دون توقف ولا انقطاع بين العنصر المحرك، الذي هو النار والعناصر الرطبة الباردة، فالأرض تصبح ماء، والماء يتبخر سحابا ثم ريحا، وتلتهب الريح،

ISSN 2664-1682

فتعود إلى النار، والنار التي تحيط بالأرض تنفذ إليها عن طريق البرق، وهذه النار تلهب السحب، ويمتد البرق إلى المياه، فيستولى على الأرض نفسها. (lewis,1973,p.327)

بهذا التصور الهيرقليطي تتمثل لنا نار التغير والصيرورة في الوجود الحقيقي، تلك التي كما عرفنا توجد في كل مكان، على صورة صراع يزداد أو يقل قوة، مختفية داخل الأرض أو في أعماق المياه، ثم يهدأ الحريق، وتنشأ عن النار ريح حارة، ويأتي بعد ذلك الهواء والسحاب وماء البحر، وأخيرا الأرض، وسيظل الأمر إلى الأبد هكذا، وهذا هو الصراع المتجدد بلا انقطاع للحياة والموت، ويبدو فيه أن العودة إلى النار الأصلية، هي في نفس الوقت تطهير وتقدم، وإن كان ذلك بصفة وقتية غير ثابتة، وتكوين عوالم الأشياء لا يكف أبدا عن التغير والصيرورة، التي بها يتبلور الوجود الحقيقي عند هيرقليطس. .(p.1978 freeman،179)

إن قبة السماء نفسها عند هيرقليطس، أي: القشرة الرقيقة من الهواء المتكاثف، التي تفصل بين نار السماء والهواء الذي نعيش فيه، ليس لها إلا وجود مؤقت ككل ما يعيش، ولا مناص من أن ينتهي بالموت، (ريغو، 1958، ص60)، فالتغير والصيرورة يجري أبدا في طريقين:طريق إلى أسفل، وطريق إلى أعلى، مع بقاء كمية المادة الأولى، التي هي النار واحدة، ومن تقابل هذين الضدين يتولد النبات والحيوان على وجه الأرض، غير أن النار تتخلص شيئا فشيئا، مما تحولت إليه، فيأتي وقت لا يبقى فيه سوى النار بتغيراتها وصيرورتها، التي هي الوجود الحقيقي عند هيرقليطس المتمثل في وجود الإله، ذاك الإله الذي هو عنده ليس كمثل الآلهة الشعبية، التي لا توحي إلا بالعادات والأفكار المعيبة والمخجلة المأخوذة من المعارف الحسية، ولاسيما فيما يخص الإله (زيوس)، الذي يعده هيرقليطس الإله الأعلى

ISSN 2664-1682

الذي يستحق التقديس والاحترام، على اعتبار أنه وحده المدرك، والمعروف للعقل الإنساني، بعيدا عن الصفات الإنسانية. (مطر، 1965، ص 34).

بهذا الشكل ارتفع هيرقليطس عن الواحدية المادية الصرفة، فهو لم يعتمد فيها على توضيح أن النار التي اعتبارها العنصر الأول عنصرا غير محسوس، بل أوضح– علاوة على ذلك– إيمانه بوحدة كامنة في تلك الأضداد ووراءها.

4. المبحث الثاني: الوجود الحقيقي عند بارمنيدس

4. 1 طريق الحق ومدلولات الوجود الحقيقي كما يتصوره العقل

توصل بارمنيدس* في هذا الطريق إلى إدراك ومعرفة الوجود الحقيقي الذي هو (الثابت) عنده، من خلال ملاحظته للتغير والصيرورة الحادث في الأشياء، فالعالم– كما تصوره– عالم تغير، وصيرورة على اعتبار أن كل الأشياء تظهر وتنقضي، ولا شيء يظل كما هو، وذلك على أساس أن الشيء في لحظة ما لا يكون هو نفسه في لحظة أخرى قادمة، الشيء الذي به يصبح قولنا صادقا أثناء حكمنا عنه بأنه ليس موجودا، ويصبح صادقا إذا حكمنا عليه بأنه موجود، ومن ثم يصبح الوجود غير موجود، واللاوجود موجودا، وهذا عند بارمنيدس مرفوض، فهو يمثل طريق الظن، والعلم الطبيعي غير اليقيني القائم على العادة، والتجارب المتكررة المعتمدة على الحواس، وعلى اللغة غير الدقيقة. (رسل، 1990، ص44، 45).

* نشأ بارمنيدس Parmenides بن فيروس Pyres في مدينة إيليا Elae، وهي إغريقية، أنشأها المهاجرون في غرب إيطاليا عام 540 ق.م، وكان مولده حوالي (515 ق.م)، ويُعدُّ من أشراف القوم على رغم أنه كان فقير الحال، ولقد شارك بارمنيدس في سياسة مدينته إيليا، وشرع لها قانونا، ولقد اتخذ من الشعر أداة للتعبير عن فلسفته، التي يرى أنها وحي إلهي، لا يليق أن يصاغ إلا في أسلوب الشعر.انظر: (الأهواني، 2009، ص127، 128)

ISSN 2664-1682

"إني آمرك أن تتأمل هذه الأمور، وأن ترجع عن ذلك الطريق [الأول للبحث]، وعن هذا الطريق الآخر أيضا الذي يضل فيه البشر، ولا يعرفون شيئا، ناظرين إله بوجهين؛ لأن الارتباك الموجود في صدورهم يضلل عقولهم، حتى لقد يعيشون، كالصم، والعمي، والطغام الذين لا يميزون، فيذهبون إلى أن الوجود موجود، واللاوجود موجود، وأن الوجود واللاوجود شيء واحد، وإلى أن كل شيء يتجه في اتجاهات متضاد".(الأهواني، 2009، ص 129).

والصيرورة تعني أن الوجود كان موجودا، لم يكن موجودا (ما صار إليه؟)، إنه باق في الوجود، ومع ذلك فهو ليس موجودا (على ما كان؟)، أليست الكثرة تعني أن كل وحدة من وحداتها هي كذا، أي وجود معين، وليست كذا، أي: ليست وجودا؛ إذ إن قولنا عن شيء: إنه كذا، معناه أن هذا الشيء حاصل اللاوجود، وهذا يعني غير معقول. (كرم، 1966، ص29).

إذن، فحقيقة الوجود عند بارمنيدس ليست كما هي عند هيرقليطس، متمثلة في هذا العالم الذي هو عالم التغير والصيرورة، على اعتبار أن معرفة الوجود مستحيل أن تتولد من شيء دائم التغير والصيرورة، إنها لا تتولد من شيء أسماه بارمنيدس اللاوجود، الذي هو عنده ليس شيئا على الإطلاق، بكونه متغيرا تغيرا دائما ومتصلاً... إنه اللاوجود الحسي الوهمي، المعروف لنا عن طريق الحواس، والذي يستحيل معه أن نعرف حقيقة الوجود معرفة ثابتة. (قرني، 1993، ص93).

والآن يجب علينا أن نعرف ماهية الوجود الحقيقي عن بارمنيدس، الذي هو وحدة موضوع التفكير، ووحدة الحقيقة، ومدلولاته مدلولات معقولة تدرك بالعقل، وبالتالى فهو حقيقة عقلية، أساسها حقيقة الوجود، ودون هذا الوجود لن يكون التفكير العقلي ممكنا.

ISSN 2664-1682

ولكننا هنا نجد أنفسنا مباشرة أمام مبدأ التناقض، الذي ينص على أنه يستحيل أن يكون الشيء موجودا، وغير موجود في نفس الوقت، فالقول بأن الوجود موجود هو حكم مثبت، والإثبات– كما هو معروف– ينفي الوجود، ولا يمكن أن تصدر الحقيقة عن النفي، بل عن الإثبات والتأكيد، فالوجود إذن هو مصدر كل شيء، هو مصدر الأشياء، ومصدر الحقيقة، بل هو الحقيقة، ومن ثم هناك محمول واحد يصدق على الوجود، وهو أنه موجود. (بدوي، 1985، ص125).

هكذا يجب علينا أن نسلم بحقيقة الوجود البارمنيدي، الذي هو موجود وغير مختلط باللاوجود، والخالي كلية من كل التغير وصيرورة، بكونه لا يصبح ولا يفسد على الإطلاق، أي: أنه كامل ثابت، ولا يمكن أن يكون أكمل مما هو عليه، "فلم يبقَ إلا طريق واحد نتحدث عنه، وهو أن الوجود موجود، وفي هذا الطريق علامات كثيرة، تدل على أن الوجود لا يكون ولا يفسد؛ لأنه كل، ووحيد التركيب، لا يتحرك، ولا نهاية له، وأنه لم يكن، ولن يكون؛ لأنه الآن كلٌّ مجتمع واحد متصل، فأي أصل لهذا الوجود تريد أن تبحث عنه؟". (الأهواني، 2009، ص132).

وبما أنه واحد متصل، فلا تكونَ يدخل عليه ولا فناء، وحتى على فرض أنه ينشأ ليس من الوجود؛ لأننا نتحدث هنا عنه، ولا من اللاوجود؛ لأنه غير موجود، فكيف يأتي الوجود من اللاوجود؟

"إني لن أسمح لك بالقول أو التفكير أنه نشأ من اللاوجود؛ لأن اللاوجود لا يمكن أن يعبر عنه أو التفكير فيه". (الأهواني، 2009، ص 132).

كذلك فالوجود لا ينقسم؛ لأن الوجود كل متجانس، ولا يمكن أن يدخل عليه لا شيء إضافي يغير من تماسكه، ولا أن ينقص منه شيء؛ لأنه مملوء كله بالوجود. (رسل،

ISSN 2664-1682

1964، ص33)، فلا يمكن أن ينقص؛ لأنه لا يمكن للوجود أن يصير لا وجود، بل هو كامل، مثل: "ليس الوجود منقسما؛ لأنه كلٌ متجانس، ولا يوجد هنا أو هناك أي شيء يمكن أن يمنعه من التماسك، وليس الوجود في مكان أكثر، أو أقل منه في مكان آخر، بل كل شيء مملوء بالوجود، فهو كل متصل؛ لأن الموجود متماسك بما هو موجود". (الأهواني، 2009، ص132).

وجملة الكلام فإن الوجود البارمنيدي يُعدُّ شيئًا مجردا، وليس مثل الطبيعة نفسها، فهو عنده لا يوجد له ماضٍ، ولا حاضر، ولا مستقبل، وإنما هو حاضر خالد بلا زمان، منزه عن الحركة، التي هي شكل من أشكال التغير والصيرورة، المستبعدين من الوجود بكونهما من مكونات اللاوجود... إنه الوجود الذي يجب أن يكون متماثلا مع نفسه، فهو لا ينشأ من أي شيء آخر غير نفسه، وبالتالى لا يعتمد على شيء آخر من أجل وجوده وحقيقته، ومن ثم ليس له شيء إيجابي، وإنما طابعه الوحيد هو ببساطة وجوده، ولا يمكن أن يُقال: إنه هذا أو ذاك... كما أنه لا يمكن أن يشار أن له هذه الصفة، أو تلك، أو أنه هنا، أو هناك، أو وقتذاك، أو الآن؟. بل هو بكل بساطة (يكون)؛ وذلك على أساس أن صفته الوحيدة هي (الكينونة)، والكينونة فقط.

4. 2 طريق الظن ومدلولات اللاوجود غير الحقيقي كما تتصوره الحواس

إن بارمنيدس في هذا الطريق مضطر إلى أن يتبع الظواهر المحسوسة، وذلك أثناء قوله: "إن الأشياء واحدة في العقل، كثيرة في الحس". (طإلس، 1964، ص144)، الشيء الذي به نراه انتقل من يقين العقل إلى ظن الحواس، ومن الفلسفة إلى العلم الطبيعي، محاولًا بذلك أن يفسر الظواهر، وأن يورد ما يبلغ إليه الظن فيها، فقبل الوجود واللاوجود في آن واحد، وهو يعلم أن هذا الطريق معارض للعقل، ولكنه يعلم أيضا أنه

ISSN 2664-1682

أهون للعقل من طريق الذين يعتقدون أن الوجود واللاوجود شيء واحد، ثم أنهما ليسا شيئا واحدا). (فرنر، 1998، ص58).

"عليك من الآن فصاعدا أن تتعلم آراء البشر، مصغيا إلى التسلسل الخادع لألفاظي". (الأهواني، 2009، ص133)

لقد حاول بارمنيدس هنا أن يُبين لنا كيف يفسر العالم من وجهة الرجل العادي؟ فإذا كانت الحقيقة أن الشيء الكائن الوحيد هو الوجود، فإن ظن البشر يضع اللاوجود إلى جانب الوجود، ويفكر في كل شيء على أنه مركب من عنصرين، واحد منهما يقابل الوجود، والثاني اللاوجود، الضوء والنار من جهة، والليل والظلام، والثقل والبرد، وهو ما يسميه بارمنيدس بالأرض أيضا من جهة ثانية، أو هما الزوج والزوجة، اللذان عن تزاوجهما ينشأ الإروس، أي: الحب، وعن هذا الإروس ينشأ باقي الوجود. (بدوي، 1958، ص124).

"لقد تعود البشر تسمية صورتين، ويجب أن يمسكوا عن ذكر إحداهما عند الانحراف عن الحق، وقد ميزوا بينهما من حيث تضادهما في الصورة، واستدلوا عليهما بعلامات مختلفة، إحداهما: النار في السماء، وهي نار رقيقة، لطيفة، متجانسة من جميع الجهات، ولكنها تختلف عن الأخرى، وهذه الصورة الأخرى تضادها تماما: إنها الليل المظلم، جسم ثقيل كثيف، وإني واصفة لك نظام العالم كما يظهر، حتى لا يسبقك تفكير إنسان". (الأهواني، 2009، ص133).

لقد كان على بارمنيدس في هذا الطريق أن يبحث في المعرفة الحسية (دوكسا)، وذلك أثناء تتبعه للظواهر الحسية، وذلك حتى يُبين لنا كيف يُفسر العالم من وجهة نظر الرجل العادي؟ ومن ثم يقف على قيمة هذا التفسير في تحصيل المعلومات وإدراك الحقائق،

ISSN 2664-1682

وقد انتهى عن هذا الطريق إلى مذهب عقلي مثالي، يصور الوجود الخارجي على أنه وَهْمٌ، ويجعل الوجود الحقيقي وجودا آخر، هو الوجود الذي يكشف لنا عنه العقل. (بدوي، 1958، ص122).

إن هذا الطريق طريق الناس العاديين، ومالهم من معرفة حسية ظنية ووهمية عند بارمنيدس يُعَدُّ تصورات شعبية وهمية؛ لأن الحواس فيه تصور لنا الوجود في شكل تغير، ومن ثم تصبح الحقيقة خيالًا وحُلْمًا فحسب، على حين أن العقل هو الذي يصور لنا الوجود الحقيقي المطلق الذي هو كل شيء، وما عداه هو العدم، الذي هو ليس بشيء، فلا خارج الوجود يمكن أن يعقل أو يؤكد، بل العدم نفسه لا نستطيع أن نصوغه في صيغة السلب؛ لأن صوغه أو تصوره، معناه أننا نمنح العدم شيئا من الوجود، ولو وجودا ذهنيا، وليس وجودا واقعيا، ومن هنا فلا نستطيع أن نَعْقِلَ العدم أو أن نتصوره. (مطر، 1965، ص39).

وبهذه التفرقة بين المعرفة العقلية وبين المعرفة الحسية (الوجود– واللاوجود الذي هو العدم) نستطيع أن نقول: إن بارمنيدس وضع لأول مرة مشكلة المعرفة في وضعها الصحيح.

وعلى أية حال، فمن واقع هذا التصور شرع بارمنيدس في تفسير خلق العالم وتكوينه، فوصف بنية العالم على أنها تتكون من أرض دائرية، ومن كواكب أخرى مختلفة، بعضها ظلام، وبعضها ضوء، وبعضها خليط، وهذه الكواكب تتجمع حول الأرض، وتحيط بها جميعًا قبةُ السماء الثابتة، ومن ثم تصبح الأرض كرة كاملة في وسط التجويف الكروي، الذي هو السماء التي تكون محيط دائرة الكون. (فرنر، 1998، ص58)

والإنسان عنده خرج من الأرض، وعلى هذا فإن أفكار البشر متناسقة مع التكوين المادي لأجسادهم، فكل عنصر من العنصرين اللذين تتكون منهما تلك الأجسام، يدرك

ISSN 2664-1682

ما يشبهه في الموجودات، وتتوقف هيئة أفكار البشر على أي من العنصرين هو الأغلب عند هذا الفرد أو ذاك، ويقترب الشخص من طريق الحق (الوجود) اقترابا أعظم حين يكون (الضوء والنار)، أي: الوجود، هو السائدَ في تكوينه على العنصر الآخر. (رسل، 1964، ص45).

"وكما أن الأعضاء تمتزج في كل الإنسان، كذلك العقل يمتزج في البشر؛ لأن العقل الذي يفكر واحد، وهو تركيب الأعضاء في كل شخص من الناس؛ لأن زيادة النور أو الليل هي التي تكون العقل". (الأهواني، 2009، ص134).

على هذا الأساس تصور بارمنيدس خلق العالم بكل أشيائه، بما فيها الإنسان، الذي هو عنده يتكون من جسد منتمٍ به إلى اللاوجود (الليل والظلام والثقل– الأرض) والذي هو عنده يعرف بطريق الظن، ونفس منتمية بها إلى الوجود (الضوء والنار)، والذي عنده يعرف بطريق الحق، ذاك الطريق الذي وصفه بارمنيدس بصفات أقرب أن تكون لإله. (بدوي، 1958، ص121) وخاصة عندما ندرك بأنه قد فضل أن تكون قصيدته من وحي الإله؛ إذ إننا نجد لديه كائنًا إلهيًّا، يكشف له عن الحقيقة التي لا يستطيع بمفرده– كبشر– أن يكتشفها، وذلك وفق ما تسمى عنده بـ (العدالة Dike)، تلك التي يعتقد بأن لها مسكنا خاصا عند البوابة التي ينفذ عبرها الليل إلى النهار.

> قادتني الأفراس التي كانت تحملني بعيدا إلى حيث هفا قلبي، وأوقفتني الآلهة عند ذلك الطريق المشهور الذي يهدي الحكيم العارف بسائر المدن، وأسرعت بي الأفراس الحكيمة، تجر عربتي في ذلك الطريق، والعذارى ترشد إليه. وتطاير الشرر من الرحى وتجويف العجلة، وصرت صريرًا كأنه الزمر، ثم ضاعفت العذارى بنات الشمس من سرعتي، وكشفن بأيديهن النقاب عن

ISSN 2664-1682

رؤوسهن؛ ليحملنني إلى النور، وقد خرجن من مسكن الليل إلى حيث بوابات طريقي الليل والنهار، وقد سدت بعوارض من فوق، وعتبة من حجر من تحت، وأغلقت البوابات الذاهبة في الهواء بأبواب عظيمة، واحتفظت العدالة dike ذات العقاب الشديد في يدها بمفاتيحها، وخاطبتها العذارى بألفاظ عذاب، يغرينها بإنزال العوارض عن البوابات بغير إبطاء، فلما انفتحت الأبواب كشفت عن فضاء واسع، ثم عادت مساميرها البرونزية إلى مواضعها، وفي هذا الطريق المستقيم اتجهت بي العذارى يقدن العربة والأفراس، حيث استقبلتني الآلهة بترحاب، وأخذت يدي اليمنى بين راحتيها، وخاطبتني قائلة: مرحى أيها الشاب، يا رفيق الهاديات الخالدات، اللاتي أرشدن عربتك إلى بيتي، مرحى... لقد أرسلت في هذا الطريق بالأمر الإلهي Themis والعدالة Dike لا لبقدر السيء، وإنه حقًّا لطريق بعيد عن أقدم البشري. (الأهواني، 2009، ص ص. 129-130)

وعلى أية حال، فمن جملة ما سبق نرى بأن بارمنيدس ومعارضه هيرقليطس قد نظر كلٌّ منهما بعين الشك إلى شهادة الحواس، وحاول كلاهما أن يصحح تلك الشهادة بوسيلة الفكر، ولكنهما اتخذا في هذا السبيل طريقين متعارضين تماما، حيث رأى هيرقليطس– كما عرفنا سابقا– أن الحواس تعطينا وهم الوجود الدائم، بينما اعتبر أن مادة النار الدائمة التغير هي الحقيقة القابعة وراء ذلك الوهم. أما بارمنيدس فإنه رأى وهم الحواس فيما تريه إيانا من صيرورة ظاهرة، وتغير من الوجود إلى الفناء، واعتبر أن الحقيقة هي الوجود الثابت وراء ذلك الوهم. (قربي، 1993، ص94، 93).

ISSN 2664-1682

هكذا تصور بارمنيدس مدلولات الوجود الحقيقي (طريق الحق)، واللاوجود الحقيقي (طريق الظن) في قصيدته التي من خلالها ستتخذ الفلسفة اليونانية فيما بعد طريقين: الطريق الذي يقول بالوجود الثابت، والطريق القائل بالوجود المتغير، وسيأتي الفلاسفة بعد ذلك من أجل التوفيق بين هذين القولين المتعارضين، وسيكون هذا التوفيق إما توفيقا آليا، كما سيفعل الذَرّيون من بعد، أو توفيقاً روحيًّا عقليًّا، كما سيفعل أنكساغورس، أو توفيقًا يجمع بين الاثنين وفيه عنصر أسطوري، كما سيفعل أنبادوقليس. (أبوريان، 1995، ص77)، (بدوي، 1958، ص121).

5. الاستنتاجات

1- إن البدايات الأولى لمشكلة الوجود الحقيقي بين الواحد والمتعدد، الثبات والصيرورة، السكون والحركة تجسدت بلا ريب لدى فلاسفة اليونان القدامى، ولاسيما هيرقليطس وبارمنيدس.

2- الوجود الحقيقي عند هيرقليطس يتمثل في كونه موجودا ولا موجود، فهو يخضع لحتمية الصيرورة التي هي ذاتية الوجود واللاوجود اللذين هما حقيقيان على السواء بكونهما صادقين ومتماثلين، بحكم ما يطرأ عليهما من تغير وصيرورة، توصل إلى معرفتهما من خلال معرفته للثبات الذي هو عنده مجرد وهم.

3- التفاعل المستمر بين الأضداد الملازم للعالم، والمتأصل فيه عند هيرقليطس، لا يترك مجالا للثبات في الوجود، وإنما تخضع كل الأشياء للتغير والصيرورة بكونها الجوهر الأساسي.

ISSN 2664-1682

4- صراع الأضداد الهيرقليطي ما هو إلا تغليب أحد الأطراف على الآخر؛ وذلك لكي يتحقق الوجود الحقيقي.

5- بالوحدة والائتلاف في صراع الأضداد يتعايش انسجاما خفيا وتناغما محسوبا في جوهر العالم، وذلك وفق تغير وصيرورة في الكيف، مع البقاء على أصل ثابت متمثل في قانون التغير ''اللوجوس'' L0g0s الذي يسير عليه الوجود في تغيره وصيرورته من ضد إلى ضد.

6- إن طبيعة الوجود عند هيرقليطس تُعَدُّ طبيعة نارية، حيث إن النار هي الأقدر والأكمل على إحداث التغير والصيرورة على نحو حسي، بكونها هي التي تمتلك دوام التغير والصيرورة.

7- يُعتبر الوجود الحقيقي عند بارمنيدس متمثلا في وحدة التفكير، ووحدة الحقيقة، ومدلولاته مدلولات معقولة تدرك بالعقل فقط، وذلك عند ملاحظته للتغير والصيرورة لا مكان لها في الوجود بكونها وهما زائفا.

8- خصائص الوجود الحقيقي عند بارمنيدس متمثلة في كونه خاليا كليا من التغير والصيرورة، على أساس أنه لا يصبح، ولا يفسد على الإطلاق، فهو كامل وثابت وواحد غير قابل للفناء والقسمة والنقصان، كما أنه يُعَدُّ شيئًا مجردا بلا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل، وإنما حاضر خالد بلا زمان، منزه عن الحركة، متماثل مع نفسه، وطبيعته متمثلة في وجوده، وصفته الوحيدة هي الكينونة فقط.

9- العقل وحده عند بارمنيدس هو القادر على أن يصور لنا الوجود الحقيقي المطلق الذي هو كل شيء، وما عداه هو العدم الذي هو ليس شيئا.

ISSN 2664-1682

10– لم يستطيع أي من هيرقليطس وبارمنيدس حسم حقيقة الوجود لصالحه، فكل منهما يمتلك جانبا من الصواب؛ لأنهما– وبكل بساطة– قد أغفلا وجود الخالق، الذي لا يمكن تفسير الوجود دونه

قائمة المراجع

أولا: المراجع العربية:

أبوريان، محمد علي (1995)، *تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة اليونانية*، ج1، ط4. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

الأهواني، أحمد فؤاد (2009) *فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط*، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

بدوي، عبد الرحمن (1958)، *ربيع الفكر اليوناني، خلاصة الفكر الأوربي*، ط 3. سلسلة الينابيع، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

رسل، برتراند، (1964)، *تاريخ الفلسفة العربية*، ترجمة: زكي نجيب محمود، الكويت، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

رسل، برتراند (1990)، *حكمة الغرب* ج (1)، ترجمة: فؤاد زكريا، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد (62).

ريغو، ألبير (1958) *الفلسفة اليونانية، أصولها وتطوراتها*، ترجمة: عبد الحليم محمود، أبو بكر زكري، القاهرة، مكتبة دار العروبة.

ستيس، وولتر (1984)، *تاريخ الفلسفة اليونانية*، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

ISSN 2664-1682

طاليس، أرسطو (1964)، *الطبيعة*، ط (6)، ترجمة: إسحاق بن حنين، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر.

فرنر، شارل (1998)، *الفلسفة إلىونانية*، ترجمة: تيسير شيخ الأرض، بيروت، دار الأنوار.

قرني، عزت (1993)، *الفلسفة إلىونانية قبل أرسطو*، القاهرة، جامعة عين شمس.

كرم، يوسف (1999)، *تاريخ الفلسفة اليونانية*، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

مطر، أميرة حلمي (1965)، *الفلسفة عند اليونان*، القاهرة، دار مطابع الشعب.

ثانيا: المراجع الأنجليزية:

Freeman, Kathleen. (1971). *The pre – Socratic philosophers*. Oxford: Basil well.

Lewis, John. (1973). *History of philosophy*. The English University pressltd.

ISSN 2664-1682